

الجنان

A L J I N A N

مجلة علمية محكمة - فصلية - تصدر عن مركز البحث العلمي في الجامعة - العدد الرابع

• أسبقية العرب في علم الأصوات

• الأداة قد

• الاعراب بين اللفظ والمعنى في القرآن الكريم

• LE PHONÈME ENTRE SON ET SENS

• LA REALITE DU PHENOMENE DE COMPETENCE
DANS LE SYSTEME DIDACTIQUE LIBANAIS

• فقر القدرات السكانية معوقاً للتنمية

• أمي وأبي حاوراني من فضلكما

• تحسين المناخ التنظيمي في الجامعات مدخل لتطوير أداء الموظفين

• علم زوائد الحديث النبوي الشريف

• الموت الدماغى

دار المنى
للطباعة والنشر

الجنان

مجلة علمية محكمة - فصلية



V

2013

طرابلس - لبنان

جامعة الجنان

ص.ب.: 818

هاتف: +961 - 6 - 447 909

فاكس: +961 - 6 - 447 900

e-mail: aljinan.mag@jinan.edu.lb

jinan@jinan.edu.lb

website: www.jinan.edu.lb

صَدَرَ فِي لَبْنَانَ عَنْ
دار المنى للطباعة والنشر
70/711442

تصميم وطباعة: وليد محمود شكشك
03/217643

الجنان

مجلة علمية محكمة - فصلية

تصدر عن مركز البحث العلمي في الجامعة

العدد الرابع

الأستاذ الدكتور عبدالمنعم بشناتي
رئيس قسم اللغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية
جامعة الجنان

أسبقية العرب في علم الأصوات على الغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

علم الأصوات أو اللسانيات أو أيّ تسمية أخرى تأدّي نفس معنى هذا العلم لا يخرج عن كونه مسمّى التجويد عند القراء واللغويين القدامى والمحدثين، فهو علم شريف خدم نطق ألفاظ القرآن الكريم بطريقة سليمة، وقد انبرى علماء اللغة العربية والقراءات منذ القرن الهجري الأوّل لبيان سلامة نطق ألفاظ القرآن الكريم ومفردات اللغة العربية عامة، فتحدّثوا عن فصاحة الكلمة، وتآلف الحروف وتنافرها، وانسجام أصواتها وتناسبها، وجهدوا في اظهار صحّة أصوات اللين القصيرة والطويلة المضمومة والمفتوحة والمكسورة، ولم ينسوا حركات الإمالة الشديدة والخفيفة، ونطق الأصوات بين بين، وإبدال الأحرف وقلبها، وأحكام الإدغام والإقلاب والحرفين المتماثلين، والإشمام والروم والإختلاس، والتفخيم والترقيق، وزيادة الأصوات أو حذفها، مما دفع باللغويين أن يبتكروا على أساس هذه الظواهر اللغويّة وغيرها عدّة علوم، مثل: علم الصرف، وعلم اللهجات، والمعاجم التي أساسها التقلبات الصوتيّة، وعلم الدلالة، والعروض... وغيرها، وكلّها تقوم على ظاهرة الأصوات المنطوقة عند العرب الفصحاء.

وصّف العرب الأصوات الإنسانيّة، فتحدّثوا عن الأصوات الانفجاريّة والإحتكاكيّة والمتوسطة

والإستطالة، وفرّقوا بين الجهر والهمس، والشدّة والرخاوة، وبينوا التنفّسي والصفير والغنة والقلقلة، والأصوات المستعلية، والمستغلة، وأصوات الإطباق والمنفتحة... وغير ذلك. فتوصّلا إلى الكشف عن مخارج الأصوات اللغويّة، فألّفت الموسوعات والمعاجم والكتب والأبحاث، لتبيين الظواهر اللغويّة العربيّة وتطور نطقها، وما كانت عليه وما آلت إليه، فرصدوا المفردات وبيّنوا ما فيها من ظواهر صوتيّة أو صرفيّة أو دلاليّة... وغير ذلك.

فكان لعلماء العربيّة دوراً رائداً في تحديد مخارج الأصوات اللغويّة: الجوفيّة والحلقية واللسانيّة والأسنانيّة واللثويّة والشفويّة والأنفيّة، ثمّ تطرّقوا إلى تشريح جهاز الانفصيل الدقيق، فحدّدوا مسار الهواء المنطلق من الرأتين باتجاه القصبه الهويّة فالوترين الصوتيين، ثم الفم فالشفيتين ماراً بالحنجرة ومؤخّرة اللسان فوسطه ثمّ طرفه فالأسنان فالشفيتين، وفرّقوا بين أصوات اللغة العربيّة بدقّة متناهية... في مرحلة متقدّمة من الزمن كان العالم مهملًا هذا النوع من العلوم.

هذه النبذة الصغيرة عن علم الأصوات تبين قضايا ومسائل عديدة لهذا العلم العريق عند المسلمين والعرب، واهتمامهم في نطق الصوت العربي بفصاحة وخفّة وشاعريّة وبسليقة العربيّ الفصيح، كما رويت اللغة العربيّة على لسان فصحاءها ونقلت إلينا بأقلام علمائنا الثقات وشهادتهم على صحّة أصوات لغتنا لتبقى على مرّ الأيام والسنوات والقرون موصّفة نرجع إلى شهادتهم ونستأنس بأرائهم.

وقد قسّمت هذه العجالة - التي سوف تلقى في المؤتمر الدولي للغة العربيّة السابع، تحت عنوان: دور اللغة العربيّة في عمليّة البناء الحضاري. المنعقد في قسم اللغة العربيّة وآدابها، كليّة اللغات وال فنون، جامعة جاكارتا الحكوميّة، جاكارتا، أندونيسيا. بتاريخ ١٤-١٧ يوليو ٢٠١١م. - إلى تمهيد وثلاثة مباحث:

المبحث الأوّل: تاريخ التفكير الصوتي.

المبحث الثاني: أبحاث علماء اللغة العربيّة في علم الأصوات.

المبحث الثالث: علم الأصوات بين الأصالة والحدّات.

المبحث الأول

تاريخ التفكير الصوتي

يعود تاريخ التفكير اللغوي والأدبي العربي إلى ما قبل الإسلام، وقد تميّز العصر الجاهلي بوجود الشعراء الفصحاء، وكانت اللغة العربية قد وصلت إلى مرحلة من النضج والعدوبة والرقّة والطلاقة، حيث كان الشعراء ينظمون أشعارهم باللغة العربية الفصيحة، ويلقون بها خطبهم في المحافل العامة والمجامع الحاشدة، فصقلت وتهذّبت، وأصبحت جزلة رائعة الأسلوب، إلى أن نزل بها القرآن الكريم فأعلى من شأنها وحفظها.

وكان للعرب في الجاهلية أسواق تقام فيها حلقات الشعر والمفاخرات والمنافرات، أسهمت في تهذيب اللغة، واستقامة النطق، وتألّق الفصاحة، فكان سوق عكاظ وسيلة إلى نشر اللغة وإلى تقارب اللهجات وسبيلاً إلى تجويد الشعر، هناك تُتقدّ ثمار القرائح وحصائد الألسنة، حتى كان النابغة الذبياني -الذي تضرب له في عكاظ قبة من أدم- يجتمع الشعراء عنده فيتحاكمون إليه^(١).

وهذا التنافس الأدبي والسباق البياني والاحتفال بتجويد القصائد والاقتراس من اللغة المهذّبة واللهجة المنقّحة، كان له أبلغ الأثر في تهذيب اللغة وصقل مواهب الأدباء، فأدرك بذلك فصحاء العرب دقائق اللغة، وميّزوا بين فصيحها وسقيمها، فتركوا الحوشي والمهجون، وتوجّهوا إلى لغتهم الرائعة يحافظون عليها، فأدركوا النغم والموسيقى والإعلال والإقواء وأمراض اللسان اللغوية، وباتوا يصحّحون ويحكمون على الشعر من خلال نطق أصواته وأدائه السليم أو الرديء لشعره.

وكان الشاعر الجاهلي -بقليل من النقد- يقوم لسانه ويدرك خطأه، فيرتقي نظمه وأداؤه، وكان النابغة الذبياني أشعر شعراء العرب^(٢) قد وقف أمام النعمان بن المنذر -وكان من ندمائه- فألقى قصيدته التي أولها:

أَمِنْ آلِ مِيَّةٍ رَائِحٌ أَوْ مَغْتَدِي عَجَلَانَ ذَا زَادٍ وَغَيْرَ مُزَوِّدٍ
زَعَمَ الْبَوَارِحُ أَنَّ رِحْلَتَنَا غَدًا وَبِذَلِكَ تَتَعَابُ الْغَرَابُ الْأَسْوَدُ

ثمّ ورد يثرب فهابوه أن يقولوا له حنثت وأكفأت^(٣). إذ كان قد أقوى: وكان النابغة قال:
(وبذلك خبّرنا الغراب الأسود) فدعوا قبيلة وأمروها أن تغني شعره ذلك ففعلت، فلمّا سمع الغناء

١- انظر كتاب الأغاني ج ١ / ص ٦. والأدب العربي بين الجاهلية والإسلام، ص ١٢٩.

٢- الأغاني ج ١١ / ص ٤.

٣- الإكفاء في الشعر عند العرب: الفساد في القافية باختلاف الحركات أو الحروف القريبة المخارج.

و(غير مزوّد) و (الغرابُ الأسودُ) بان له ذلك في اللحن وفطن لموضع الخطأ فلم يعد، وكان يقول: وردت يثرب وفي شعري بعض العاهة، فصدرت عنها وأنا أشعر الناس^(١).

وقد عرّف القدماء الشعر بأنه: «الكلام الموزون المقفّى» فهم يرون الإنسجام الموسيقي (أي: الصوتي) في توالي مقاطع الكلام وخضوعها إلى ترتيب خاص...^(٢) فتطرب له الأسماع لتوافق المقاطع في نسجه، فتوافر ألفاظه المتجانسة وجرس موسيقاه وترتيب مقاطعه يؤدي إلى طرب السامع وسروره. والموسيقى تعتمد على الناحية الصوتية التي تقسّم الجمل إلى مقاطع متناسقة تكوّن وحدات معيّنة على ترتيب معيّن... ولهذا ابتكر الخليل بن أحمد علم العروض الذي هو علم موسيقى الشعر، فالنغمة في علم العروض وحدة صوتية لا تدخل في حسابها نهاية الكلمات، فمرّة تنتهي النغمة في آخر الكلمة، ومرّة في وسطها، ومرّة تبدأ من نهاية كلمة وتنتهي ببدء الكلمة التي تليها، ومثال ذلك قول الشاعر:

هم ورثوك المجد أبيض زاهرا فاحمله مثل الشمس للأبناء

هم ورثو كلمجد أب يضزاهرن فاحلمهث لشمس أبناءني

مستفعلن مستفعلن متفاعلن مستفعلن مستفعلن مستفعل^(٣)

والعصر الجاهلي خلف تراثاً ضخماً من الشعر الأدبي، وإذا أردنا أن نستبين تاريخ هذا الأدب فإننا لا نصل إلى نتيجة مقنعة، إذ أننا لا نعرف تاريخ اللغة العربية على الوجه الصحيح، وليس من المعقول أنّ هذه اللغة بدأت بهذه النصوص الشعرية الجاهلية، فهذه النصوص نماذج عالية من العربية^(٤).

وعلم العروض من صلب علم الصوتيات، فقد قال الدواخلي والقصاص - مترجماً كتاب (اللغة): وتتصل بالأصوات دراسة وزن الشعر، التي تناولها من جديد فيما يختص بالفرنسية الأستاذ بول فريبه (الشعر الفرنسي، مجلّدان، باريس ١٩٣١ - ١٩٣١). وتناولها من جهة نظراً عامة الأستاذ: أ. دي جروب في (العروض العام والوزن): (La metrique (generale et le rythme (نشرة الجمعية اللغوية مجلّد ٣٠ ص ٢٠٢) وفي كتاب (الوزن) der rythmus نيو فيلو جوس عام ١٩٣٤^(٥).

١- انظر الأغاني ١١/٨-١١.

٢- انظر موسيقى الشعر، ص ١٠.

٣- انظر علم العروض والقافية، ص ١٠.

٤- انظر التطور اللغوي، ص ٦٥.

٥- انظر اللغة، ص ٤٦١.

والعرب بحسّهم المرهف، وفصاحتهم النقيّة أدركوا ثقل الأصوات وخفّتها وما يجري على اللسان سلساً أو نايياً، فكانوا يميلون إلى تخفيف الأصوات وطلاقتها، وإذا احتاجوا إلى قلب حرف أو إبداله بما يناسبه فعلوا، قال المبرّد: «والشاعر إذا احتاج إلى قلب الهمزة قلبها إن كانت الهمزة مكسورةً جعلها ياءً، أو ساكنةً جعلها على حركة ما قبلها، وإن كانت مفتوحةً وقبلها فتحةً جعلها ألفاً، وإن كانت مفتوحةً وقبلها كسرةً جعلها ياءً، وإن كانت قبلها ضمّةً جعلها واواً»^(١) فقد أدرك العربيّ الفصيح قوانين اللغة العربيّة الصوتيّة والنحويّة والصرفيّة وغيرها في العصر الجاهلي، ولم تكن مكتوبةً وإنما بالسليقة العربيّة السليمة، وما أن أهلّ عصر الإسلام إلا وكانت العربيّة أفضل اللغات تناسقاً وانسجاماً وضبطاً. فنزل القرآن بها ليشرّفها ويزيدها رونقاً وجمالاً.

وكان رسول الله ﷺ حسن الصوت، فعن البراء بن عازب. رضي الله عنها. قال: «سمعت النبي ﷺ قرأ في العشاء بالتين والزيتون فما سمعت أحجداً أحسن صوتاً منه» متّفق عليه^(٢). وكان رسول الله ﷺ يأمر المسلمين بالتغنّي وتحسين أصواتهم عندما يقرأون القرآن الكريم، وعن أبي لبابة بشير بن عبد المنذر - رضي الله عنه - أنّ النبي ﷺ قال: «من لم يتغنّى بالقرآن فليس منا» رواه أبو داود بإسناد جيد^(٣) وقد وضع علماء الحديث باباً في استحباب تحسين الصوت بالقرآن، وكان رسول الله ﷺ يحبّ أن يستمع إلى الأصوات الحسنة، فعن أبي بردة عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ لأبي موسى: «لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة! لقد أوتيت زمزماً من مزامير آل داود» رواه مسلم في صحيحه^(٤).

وإذا كنّا نقول: بأنّ الدافع إلى الدراسة اللغويّة عند العرب يكمن في المحاولة المخلصة الجادة التي قام بها علماء العرب للمحافظة على القرآن الكريم وعلى لغته، فإنّ هذا القول يكون أصدق وأوضح عندما نطلقه بالنسبة للدراسات الصوتيّة، ذلك أنّ أوّل فكر صوتيّ وصل إلينا عنهم يتجلّى في محاولة أبي الأسود الدؤلي^(٥) وضع رموزاً لقسم هام من الأصوات أهملت الكتابة السميّة الرمز له، وقد عرف هذا القسم بالحركات، وقد أدّى إهمال الرمز له إلى وقوع الخطأ في تلاوة القرآن الكريم، وأراد أبو الأسود أن يمنع هذا الخطأ، فجاء بكاتب ووضع المصحف أمامه، وقال له: إذا رأيتني أفتح فمي بالحرف فانقط واحدة فوقه، وإذا رأيتني أضمه به فانقط واحدة

١- الكامل، ٢ / ٤٤٢.

٢- شرح رياض الصالحين، ص ٣٦٦.

٣- نفس المرجع.

٤- صحيح مسلم، ص ٣٧٩.

٥- هو: ظالم بن عمرو بن سفيان، اشتهر بكنيته، وكان من شيعة علي - ر - وتوفي سنة تسع وستين، وله خمس وثمانون سنة. انظر: تاريخ العلماء النحويين، ص ١٦٤ وما بعدها...

بين يديه، وإن رأيتي أكرهه فاجعل النقطة تحته، وإن أتبع شيئاً من هذه الحركات غنةً، فاجعل النقطة نقطتين^(١).

ويبين هذا النصُّ أنّ رسم الأصوات الصامتة (الحروف) كان معلوماً، أما الأصوات الصائتة (الحركات القصيرة والطويلة) فلم يكن متصوّراً بصورة كافية، ولهذا كان مهملاً في الرمز له في الكتابة، فالأصوات الصائتة (الحركات) ليست صفات للأصوات الصامتة (الحروف) وإنما هي أصوات أخرى لا تقلُّ أهمّيّتها عن الأصوات الصامتة.

وعمل أبي الأسود كان جليلاً، فقد فتح به باباً لإدراك الفرق بين الأصوات الصامتة والأصوات الصائتة، ولفت نظر الباحثين إلى التفرقة بينهما، فالفتحة تفتح معها الشفتان، والكسرة تنفجران معها، والضمة تضمّان من أجلها، ومن هذه التحركات الشفويّة استخدمت تلك الأصوات الصائتة اسمها العام (الحركات) وتسمياتها الجزئيّة فتحة وكسرة وضمة، وهذا عمل جليل ومبتكر^(٢).

المبحث الثاني: أبحاث علماء اللغة العربية في علم الأصوات

السلوك اللغوي لفصحاء العربية قبل الاسلام يوحى بعمق فهمهم لأصوات اللغة العربية، بدليل نهجهم في النطق وإخراج الأصوات اللغوية ذات المعاني الدقيقة والخصائص المميّزة، فقد إنتشر الوعي الصوتي ونطق المقاطع الصوتية وتحديد الكمّ الزمني لأصوات اللين، فميزوا بين اللهجات بطريقة معرفتهم بالمنطوق اللغوي، فكان الأعرابي يتبيّن عند سماع جملة أن دلالتها إستفهامية، نحو قوله: **مُحَمَّدٌ حَضَرَ؟** وبدلالة الإخبار- في نفس المنطوق-: محمد خضر. قاصداً الاخبار بمقدم محمد. إلا أن التنغيم والأداء والنبر يختلف ما بين الحالتين: الإستفهام والإخبار، أو الإنكار.

والأعرابي في العصر الجاهلي الذي ميّز المعاني المتباينة عن طريق الأداء، لم يغفل أداء الكلمة المنطوقة أيضاً حسب دلالة معناها، فقد تؤدي الكلمة الواحدة أكثر من معنى وأحرف الكلمة لم يلحقها أي تغيير، وإنما الذي تغيّر هو أداء الكلمة الصوتي، سواء بالتغيير في عنصر واحد أو أكثر، وعناصر الأداء: النبر- الطول الصوتي- التزمين- التنغيم- اللون. فعند نطق كلمة ما فإنها تدلّ على معنى معين، وإذا طلبنا بنفس الأحرف مدلولاً آخر فعلينا تغيير أحد عناصر الأداء أو أكثر، فبتغيير بذلك مدلول الكلمة، فإذا قلنا: «أسد» الحيوان المعروف، و«أسد» أفعل تفضيل من السداد، يدل على هذا الاختلاف في المعنى بسبب اختلاف موضع النبر فيهما، فهو

١- أنظر: محاضرات في الصوتيات، ص ٢٩. وتاريخ العلماء النحويين، ص ١٦٧، والخبر موجود في عدة مراجع.

٢- انظر: محاضرات في الأصوات، ص ٣٠.

في الأولى على المقطع «أ» وفي الثانية على المقطع الثاني «سَدَّ». وطول الصوت اللغوي يؤدي الى تغيير نغمة الكلمة ومدلولها، فصوت الفتح الطويل أو القصير، وكذلك الضم والكسر، وبتغيير طول الصوت اللغوي يتغير مدلول الكلمة الى معنى آخر، فكلما ذَهَبَ فعلٌ ماضٍ، مفتوح الأول، وكذلك ذاهب الحرف الأول مفتوح طويل، ولكن المعنى اسم فاعل .

هذه الملاحظات البسيطة في الدرس اللغوي الصوتي، هي جزئيات من فهم الأعرابي لأصوات اللغة العربية وقواعدها النحوية التي لم يكتب لها في ذلك العصر بعد أن تدون، فاللغة العربية الأدبية التي عرفت قبل الاسلام كانت أعلى منزلة من لغة التخاطب العادية المتداولة، وكانت في غاية من الرقي والاتساع الفكري والحضاري، وبراعة العرب في لغتهم سهّلت عليهم إدراك معاني القرآن الكريم. قال الراجزي: نزل القرآن على رسول الله ﷺ بأفصح ما تسموا إليه لغة العرب في خصائصها العجيبة وما تقوّم به، مما هو في جزئها ودقة أوضاعها وإحكام نظمها واجتماعها من ذلك على تأليف صوتي يكاد يكون موسيقيا محضا، في التركيب، والتناسب بين أجراس الحروف الملاءمة بين طبيعة المعنى وطبيعة الصوت الذي يؤدّيه^(١).

والأعرابي في سليقته السليمة كان متمكنا من نطق الأصوات اللغوية بما يتناسب مع الإعراب والمعنى المراد الدلالة عليه، والا لم يتمكن من فهم القرآن الكريم، وأشكلت عليه العديد من الآيات، إذ الخطأ الصوتي في الإعراب عند تلاوة القرآن يؤدي إلى غير المدلول الذي يريده القرآن الكريم، فقد روي أن أعرابيا في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: من يقرئني شيئا مما أنزل الله تعالى على محمد ﷺ فأقرأه رجل سورة براءة، فقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾^(٢) بالجبر، فقال الأعرابي: «أوقد برئ الله من رسوله؟ إن يكن الله تعالى برئ من رسوله فأنا أبرأ منه، فبلغ عمر - عليه السلام - مقالة الأعرابي، فدعاه، فقال: يا أعرابي أتبرأ من رسول الله ﷺ؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنني قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن، فسألت من يقرئني؟ فأقرأني هذا سورة براءة، فقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ فقلت: أو قد برئ الله تعالى من رسوله؟ إن يكن الله تعالى برئ من رسوله فأنا أبرأ منه، فقال عمر - رضي الله عنه - : ليس هكذا يا أعرابي، فقال: كيف هي يا أمير المؤمنين؟ فقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ ممن برئ الله ورسوله منهم، فأمر عمر - رضي الله عنه - أن لا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة، وأمر أبا الأسود الدؤلي أن يضع النحو^(٣)».

١- إعجاز القرآن- للراجزي. ص ٤٦.

٢- سورة التوبة، الآية (٣)

٣- نشأت النحو لمحمد الطنطاوي. ص ١٨، ولهذه الحادثة عدة روايات وانظر تاريخ العلماء النحويين، ص ١٦٦.

لذلك فقد تميزت اللغة العربية عن بقية اللغات بالإعراب وقل: بحركات الإعراب أو أصوات الإعراب، فإذا أعرب الناطق بالصوت سليماً عدّ فصيحاً وإلا يعتبر أنه قد لحن أي: أخطأ والعرب عُرِفوا أنهم فصحاء، والقرآن نزل بلغة عربية فصيحة لا تعربها شائبة، قال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا عَرِيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَنْقُوْنَ﴾^(١). فكان الأعرابي يدرك بدقّة متناهية مدلول الصوت اللغوي ويميز به دلالاته على المعاني بواسطة سماع الفتح أو الكسر أو الضم، وكذلك بطريقة نوع إلقاء الخطاب.

وكانت ملاحظات ظالم بن عمرو بن سفيان المعروف بأبي الأسود الدؤلي^(٢) خطوة أولى نحو وضع علم النحو، إذ لاحظ أن ابنته وغيرها لا يميّزون بين معنى الصوت اللغوي المفتوح والمضموم، إذ قالت ابنته له يوماً: يا أبت، ما أشدُّ الحرَّ - تريد التّعجب من شدة الحرِّ، وظن أنها تريد الاستفهام - وقد كان يوماً حاراً. فقال: ما نحن فيه. فقالت: إنما أردتُ أن الحرَّ شديدٌ فقال: قولي: ما أشدُّ الحرَّ^(٣). وروي أيضاً أن ابنته قالت له: ما أحسنُ السماءِ؟ فقال أي بُنيّة، المجرّة، ويقال: نجومها. فقال: لم أردُ أيُّ شيءٍ منها أحسنُ، إنما تعجبتُ. فقال: قولي إذا: ما أحسنُ السماءِ^(٤). فيقال: إن أول ما رسم أبو الأسود من علم النحو بابّي التعجب والاستفهام.

وأبو الأسود الدؤلي كان من شيعة علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أي عاصر الخلفاء الراشدين، إلا أن علوم العربية مما لا يختلف فيه اثنان أنها نهضت في عدة نواح في القرن الثاني الهجري وكان عمادها الخليل بن أحمد، فمن عهده شتات العلم، والتأم عقده، واتخذ تعليمه دوره الفني الصحيح، فقد وضع الخليل القواعد النحوية مرتبة ورواها عنه سيبويه، وابتكر علم العروض، والأصوات اللغوية، والمعاجم... وغيرها.

وكان العلماء يجمعون اللغة الفصحى واللهجات العربية ويفرّقون فيما بينهما بنطق الأعراب لهجتهن، قال الأصمعي: ارتفعت قريش في الفصاحة عن عننة تميم، وتلتله بهراء، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضعّ قيس، وعجرفية ضبة. أما عننة تميم، فإن تميماً تقول في موضع (أن): (عن) - فتبدل الهمزة عينا - وتقول: ظننت عن عبد الله قائم. وأما تلتله بهراء، فإنها تقول: تَعَلَّمُونَ وتَفْعَلُونَ وتَصْنَعُونَ بكسر أوائل الحروف، ومعنى قوله: «كشكشة ربيعة» فانما يريد قولها مع كاف ضمير المؤنث: إِنَّكشَ ورَأَيْتِكشَ، وأعطيتكش. تفعل هذا في الوقف، فإذا وصلت أسقطت

١- سورة الزمر، الآية (١٨)

٢- أنظر ترجمته في تاريخ العلماء النحويين ص ١٦٤.

٣- نفس المرجع ص ١٦٧.

٤- نفس المرجع ص ١٦٨. وانظر نشأة النحو، ص ١٨. وانظر ترجمته وأخباره في طبقات النحويين واللغويين ص ٢١.

الشين. وأما «كسكسة هوازن» فقولهم أيضاً: أعطيتُكس، ومِنكس وعَنكس، وهذا في الوقف دون الفصل... الخ^(١) فقد حدد علماء اللغة عند جمعهم للغة الفصيحة ماذا يريدون من وراء جمعهم للغة الفصيحة واللهجات، فدرسوا اللهجات وذكروا في توصيفها أنها صحيحة أو رديئة، وبيّنوا ما فيها من إبدال أو قلب أو إعلال.

واللهجات: قيود صوتية خاصة تلحظ عند أداء الألفاظ في بيئة معينة، وهذا نتبيته في جميع اللهجات العربية، فمثلاً: نجد أن جمهرة العرب تحرّك الهاء من «هم» بالضمّ إن لم تسبق بياء أو كسر كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنِ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصّٰلِحِينَ﴾^(٢) فإن سبقت بالياء أو الكسر، كسرت الهاء، كقوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٣) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ...^(٤) ولكن ربعة تضمّ الهاء من «هم» مطلقاً دون النظر لما يسبقها من حركة أو حرف، وتلك الوجهة المنسوبة إلى ربعة تعرف بالوهم^(٥).

وقد قام علماء اللغة العربية من أول القرن الثاني الهجري يجمعون اللغة واللهجات وما يصادفونه من كلام وعبارات ويذكرون طريقة نطق كل قبيلة لمفردات لهجتها ويوقعون ذلك في الرسائل اللغوية الصغيرة، التي استسقى اللغويون العرب مادتها من أفواه البدو، فكان اللغويون يسبحون في الجزيرة العربية، يسألون البدو، ويكتبون عنهم، وقد سأل الكسائي (المتوفى سنة ١٨٩هـ). الخليل ابن أحمد قائلاً: من أين أخذت علمك هذا؟ فقال: من بداوي الحجاز وتهامة، فخرج الكسائي إلى البادية، ورجع وقد أنفذ خمس عشرة قتيبة حبر، في الكتابة عن العرب، سوى ما حفظ^(٥).

أراد الخليل أن يكون عمله في جمع اللغة فذا لا مثيل له، مرتباً بدقة، ومنسقا بطريقة لم يسبق إليها، فوضع كتابه «العين» ورتب المادة اللغوية في كتابه على حسب مخارج الأصوات فبدأ بالأصوات الحلقية، ثم باللسانية، ثم بالشفوية، ثم بالجوفية^(١) ويبدو أن تفوقه في علم الأصوات والنغم والموسيقى كان هادياً له لسلوك هذا المنهج، وجعل كل صوت باباً ورتب الأصوات اللغوية مجموعات صوتية، مبنياً على أساس المخارج فقدم المجموعات الصوتية حسب عمقها في الحلق

١- أنظر: سر صناعة الإعراب ١/٢٣٤.

٢- سورة التوبة، آية (٧٥).

٣- سورة الفاتحة آية (٦-٧).

٤- أنظر اللهجات العربية، ص: (٧-٨).

٥- أنظر فصول في فقه اللغة، ص (٢٠٤).

٦- ليس المقام هنا ذكر منهج الخليل في كتابة العين.

ثمّ تدرج حتى الأصوات الشفوية، ثم الأصوات الجوفية (حروف العلة). وهي على النحو التالي: ع ح ه خ غ، ق ك، ج ش ض، ص س ز، ط د ت، ظ ذ ث، ر ل ن، ف ب م، و ا ي ء.^(١)

وقد حدد الخليل مخارج الأصوات بدقة لم يعهد لها مثيلٌ من قبل، فقال: فالعين والحاء والهاء والغين والظاء والسين والشين والضاد شجرية، لأن مبدأها من الحلق. والقاف والكاف لهويتان، لأن مبدأها من اللهاة. والجيم والشين والضاد شجرية، لأن مبدأها من شجر الفم أي مفرج الفم. والصاد والسين والزاء أسلية، لأن مبدأها من أسلة اللسان وهي مستدق طرف اللسان. والطاء والتاء والدال نطعية، لأن مبدأها من نطع الغار الأعلى. والظاء والذال والتاء لثوية، لأن مبدأها من اللثة. والراء واللام والنون ذليقية، لأن مبدأها من ذلق اللسان، وهو تحديد طرفي ذلق اللسان. والفاء والباء والميم شفوية، لأن مبدأها من الشفة. والياء والواو والألف والهمزة هوائية في حيز واحد، لأنها لا يتعلق بها شيء، فنسب كل حرف إلى مدرجته وموضعه الذي يبدأ منه^(٢).

والخليل بيّن الفروق بدقة متناهية بين الأصوات في المجموعة الواحدة ذات المخرج الواحد، حيث وصّف الأصوات المتوالية على الترتيب فيذكر التشابه ما بين الصوتين: فأقصى الحروف كلها: مخرج العين ثم الحاء ولولا بحّة في الحاء لأشبهت العين لقرب مخرجها من العين، ثم الهاء ولولا هتة في الهاء - أو ههه - لأشبهت الحاء، لقرب مخرج الهاء من الحاء...^(٣) إلخ.

وقد ذكر اللغويون وعلماء القراءات القرآنية أن لكل حرف من الحروف مخرج عند نطقه لذا يجب أن يستوفي إلى جانب مخرجه الصحيح صفة نطقه سليما، فحدّدوا لكل صوت صفاته، من الجهر وضده الهمس، والرخاوة وضدها الشدة، والإنفتاح وضده الإطباق، والاستفال وضده الاستعلاء، وبيّنوا أن الحروف المجهورة تسعة عشر حرفا، وهي عدا حروف الهمس العشرة المجموعة في: حثت كسف شخصه، وحروف الشدة ثمانية وهي المجموعة في: أجدك قطبت، وما عداها فهي حروف رخوة، إلا أن الحروف الخمسة في: «نل عمرو» حروف متوسطة بين الشدة والرخاوة، وباقي الحروف للرخاوة وهي ستة عشر حرفا، وحروف الاستعلاء سبعة جمعت في: خص ضغط قط، وباقي الحرف مستقلة، وحروف الإطباق أربعة: الصاد والضاد والطاء والظاء، وباقي الحروف منفتحة، وكل هذا معلوم ومحلّه كتب التجويد^(٤).

١- انظر كتاب العين، ص ٦٥.

٢- نفس المرجع ص ٦٥. هذا ما يراه الخليل بن أحمد ويختلف علماء التجويد معه في مخارج الأصوات، نحو قولهم: وفي الحلق ثلاثة مخارج: أفصاه ويخرج منه ثلاثة أحرف: الهمزة والهاء والألف، ووسطه ويخرج منه حرفان: العين والحاء، وأوله، أي: أدناه مما يلي الفم، ويخرج منه الغين والحاء. الواو، ص ٣٨٨.

٣- كتاب العين ص ٦٤.

٤- انظر الواو، ص ٣٩١.

وقد ذكر علماء التجويد لكل صوت لغوي بعض الخصائص الذي يجب أن يتمتع بها: فالصفير صفة يوصف بها الصاد والسين والزاي. والتفشي صفة توصف بها الشين. والإنحراف صفة توصف بها اللام والراء. والتكرير صفة توصف بها الراء والاستطالة توصف بها الضاد. والهوى صفة توصف بها الألف... والحروف الخمسة المجموعة في «قطب جد» توصف بالقلقلة، والقاف أعرف حروف القلقللة وأشهرها لشدة الصوت فيها أكثر من غيرها^(١).

وقد ألف تلميذ الخليل النجيب سيويه «الكتاب» وأوقع فيه علماء جمًّا فكان مرجع النحاة والقراء، وعقد بابا في «الادغام» ذكر فيه عدد حروف العربية ومخارجها وصفاتها: مهموسها ومجهورها، وأحوال مجهورها ومهموسها واختلافها، وذكر أن أحرف اللغة العربية تسعة وعشرون حرفا، وتصبح خمسةً وثلاثين حرفاً بحروف هنّ فروع، وأصلها من التسعة والعشرين، وهي كثيرة يؤخذ بها، وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار، وهي: النون الخفيفة، والهمزة التي بينَ بيّن الألف التي تُمال إمالة شديدة، والشين التي كالجيم، والصاد التي تكون كالزاي، وألفُ التّفخيم بلغة أهل الحجاز، في قولهم: الصّلاة والزّكاة والحياة. وتكون اثني وأربعين حرفا بحروف غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة من تُرضى عربيته ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر، وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، والجيم التي كالشين والصاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالتاء، والباء التي كالفاء، وهذه الحروف اثني وأربعين جيدها ورديتها أصلها التسعة والعشرون الأساسية لا تُتبيّن إلا بالمشافهة. وهذا النص يبيّن أن عدد أحرف اللغة العربية المكتوبة تسعة وعشرون حرفاً^(٢) بينما المنطوق يفوق ذلك وتصل أصوات اللغة العربية المشهورة إلى اثني وأربعين صوتاً^(٣).

وقد أكد هذا التوجه العلامة ابن دريد^(٤) فبعد أن ذكر الأحرف وعددها مثل لها بقوله: فمن تلك الحروف: الحرف الذي بين (الباء والفاء) مثل (پور) - تكتب بثلاث نقط تحتية - إذا اضطروا إليه قالوا (قور). ومثل الحرف الذي بين (القاف والكاف) و(الجيم والكاف) وهي لغة سائر أهل اليمن مثل: جمل، إذا اضطروا إليه قالوا (كَمَل) بين الجيم والكاف^(٥). ومثل الحرف

١- انظر الواجبي، ص ٣٩٢.

٢- إعتبار الأبجدية العربية تسعة وعشرون حرفاً مختلف عليه، بعضهم يعتبرها ثمانية وعشرين حرفاً على إعتبار أن الحرف التاسع والعشرين، ليس حرفاً بل هو صوت الفتحة الممتد، في حين أن الواو والياء يأتيان متحركين.

٣- انظر «الكتاب» ٤٨٨/٢.

٤- هو أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري المعروف بابن دريد، المتوفى سنة ٣٢١هـ. الجمهرة، ص (٤).

٥- هي المعروفة بالجيم القاهرية أو الفارسية أو اليابسة.

الذي بين (الياء والجيم) وبين (الياء والشين) مثل: غلامي، فإذا اضطروا قالوا: غلامج...^(١)

وقد ذكر سيبويه الأصوات الشديدة والرخوة وما بين الرخاوة والشدة، والأصوات المنحرفة والمكررة، وأصوات اللين، والصوت الهاوي، والأصوات المطبقة والمنفحة^(٢)، ثم شرح الإدغام في الحرفين اللذين تضع لسانك لهما موضعاً واحداً لا يزول عنه، ويبيّن أمرهما إذا كانا من كلمة واحدة لا يفترقان، وشرح إذا كانا منفصلين أحسن ما يكون الإدغام في الحرفين المتحركين اللذين هما سواء إذا كانا منفصلين، أن تتوالى خمسة أحرف متحركة بهما فصاعداً، لأن الكلمة الخماسية لا تتوالى حروفها متحركة استقالاتاً للمتحرّكات مع هذه العدة ولا بد من ساكن، ومما يدل على أن الإدغام لك أحسن أنه لا تتوالى في تأليف الشعر خمسة أحرف متحركة، وذلك نحو: جَعَلَ لَكَ، وفَعَلَ لبيد، فأنت تقول: جعلك، وفعلبيد. فإن كان قبل الحرف المتحرك الذي وقع بعده حرف مثله: حرف متحرك ليس إلا وكان بعد الذي - الحرف الثاني - هو مثله حرف ساكن حسن الادغام، وذلك نحو قولك: يد داود، وكلما توالى الحركات أكثر كان الادغام أحسن. وإذا التقى الحرفان المثلان اللذان هما سواء متحركين وقبل الأول حرف مدّ فإن الإدغام حسن لأن حرف المدّ بمنزلة متحرك في الإدغام، وذلك نحو: إنَّ المال لك، وهم يُظلموني وهما يُظلماني وأنت تظلميني^(٣). وقد أطل سيبويه في شرح نظريته للإدغام، ثم شرح الادغام في الحروف المتقاربة التي من مخرج واحد، والحروف المتقاربة مخارجها... الخ.

أما ابن دريد في مقدمة الجمهرة فقد عقد عدّة أبواب في مسائل أصول اللغة العربية^(٤)، مثل: باب صفة الحروف وأجناسها، الحروف المذقة، باب مخارج الحروف وأجناسها، باب معرفة الزوائد ومواقعها، باب أمثلة الأبنية، وقال فيه: واعلم أن أحسن الأبنية عندهم - أي العرب - أن بينوا بامتزاج الحروف المتباعدة، ألا ترى أنك لا تجد بناء رباعياً ومصمت الحروف لامزاج له من حروف الزلاقة، إلا بناء يجعل بالسين وهو قليل جداً، مثل: عَسَجَد، وذلك أن السين ليّنة وجرسها من جوهر الغنة، فلذلك جاءت في هذا البناء.

فأما الخماسي مثل: فَرَزْدَقٌ وَسَفْرَجَلٌ وَشَمْرَدَلٌ فإنك لست تجد واحدة إلا بحرف وحرفين من حروف الزلاقة من مخرج الشفتين، أو أسلة اللسان، فإن جاءك بناء يخالف ما رسمته لك، مثل دَعَشَقٌ وَصَعْنَجٌ وَحُضَافَجٌ وَصَفْعَجٌ، أو مثل: عَقَجَشٌ وَشَعْفَجٌ، فإنه ليس من كلام العرب، فاردده فإن قوماً يفتعلون هذه الاسماء بالحروف المصمّمة ولا يميزونها بحروف الزلاقة، فلا يقبل ذلك من الشعر المستقيم الأجزاء، إلا ما وافق ما بنته العرب من العروض الذي أسس على شعر

١- جمهر اللغة، ص (٥).

٢- انظر الكتاب، ص (٤٩٠).

٣- انظر الكتاب ٢/٢٩١ وما بعدها.

٤- انظر جمهرة اللغة ٦/١ وما بعدها.

وبيّن ابن دريد أكثر الحروف استعمالاً عند العرب، وأقلّ ما يستعملون لثقلها على أسننتهم، وأن أخفّ هذه الحروف كلها ما استعملته العرب في أصول أبيّتهم من الزوائد، وبيّن إذا توالى اللام والراء في بناءين فاللام لا تستبين مثل قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢) فإنهم لا يبيّنون اللام ويبدّلونها راءً لأنه ليس في كلامهم «لر»... إلا بعض المفردات، ومثله: «الرّحمن الرّحيم» لا تستبين اللام عند الراء، وكذلك فعلهم فيما أدخل عليه حرف زائد وأبدل، فتاء الافتعال عند الطاء والظاء والزاي والصاد وأخواتها تحول إلى الحرف الأقوى. وفي البناء الواحد فقد أبدلوا الحرف الضعيف إلى حرف قوي، فالسين إذا اجتمعت في كلمة مع القاف أو الطاء أو الحاء، فأنت مخير بابقائها على حالها، أو إبدالها صاداً، مثل: سراط وصراط، وسقر وصقر، والسين إذا اجتمعت مع الغين في كلمة جعلوا السين صاداً والصاد سينا، مثل: سَوَّغَتْه وِصَوَّغَتْه، وقالوا: اصبغ الله عليه نعمه، وأسبغها، وقالوا: قصط وقسط^(٣).

وقد عقد الأزهري في مقدمة تهذيب اللغة باباً في ألقاب الحروف ومدارجها^(٤). وآخر في أحياء الحروف^(٥)، بين فيهما العديد من المسائل الصوتية. وقد ذكر سييويه في ثانياً «الكتاب» ملاحظات قيّمة فيما يتعلق بالكمّ الزمني للحركات^(٦).

أما علماء القراءات القرآنية والتجويد فإنهم توسعوا في هذا العلم ليتعلم طلاب العلم قراءة القرآن مجوّداً ومحافظة على القراءة السليمة للقرآن الكريم، وهذه بعض الأبواب الواردة في «حرز الأمانى ووجه التهاني»^(٧) المعروف «بالشاطبية»: باب الإدغام الكبير، باب إدغام الحرفين المتقاربيين في كلمة وكلمتين، باب المدّ والقصر، باب الهمزتين من كلمة، باب الهمزتين من كلمتين، باب الهمز المفرد، باب نقل حركة الهمز إلى الساكن قبلها، باب الوقف على الهمز، باب الإظهار والإدغام، باب ذكر حروف قربت مخارجها، باب أحكام النون الساكنة والتنوين، باب الفتح والأصالة بين اللفظين، باب إمالة هاء التأنيث وما قبلها في الوقف، باب مذاهب العلماء في الراءات، باب اللامات، باب الوقف على أواخر الكلم، باب مخارج الحروف وصفاتها التي يحتاج

١- انظر جمهرة اللغة ١/١١.

٢- سورة المطففين، الآية ١٤.

٣- انظر جمهرة اللغة ١/١٢.

٤- انظر تهذيب اللغة ١/٤٤.

٥- انظر نفس المرجع ١/٥٠.

٦- انظر محاضرات في الصوتيات، ص ٣٠.

٧- تأليف: الإمام الشاطبي، وهو أبو القاسم بن فهيرة بن خلف بن أحمد الشاطبي الأندلسي، ولد سنة ٥٢٨ هجرية بشاطبية وتوفي سنة ٥٩٠ هجرية ودفن في سفح جبل المقطم بالقاهرة، انظر ترجمته في «الوائفي»، ص ٣.

القارئ إليها^(١). فقد توجه أصحاب الأداء القرآني (التجويد) إلى تنظيم الدراسة الصوتية على أسس وقواعد استقوها من دراسات الخليل وتلاميذه، وألّفوا كتباً كثيرة في علم التجويد، ليقتبل الطلاب على التعلم منها، ليؤدوا تلاوة القرآن أداءً صحيحاً.

ويعد ابن جنّي^(٢) صاحب الفضل الأول في جمع التراث الصوتي للذين سبقوه، وقد عرضه في مؤلفاته وبخاصة في كتابه: «سرّ صناعة الإعراب» عرضاً وافياً، شرح فيه غوامضه، وأكمل فيه كثيراً من نواقصه، فكان بحق المصدر الوافي لمن يريد معرفة التفكير الصوتي عند العرب^(٣).

والناظر في كتاب سرّ صناعة الإعراب يرى أن ابن جنّي ابتدأ الكتاب بمدخل عالٍ فيه الموضوعات التالية: فرق ما بين الصوت والحرف، ذوق أصوات الحروف، الحروف المتسعة المخارج الثلاثة: الألف، والياء، والواو، تشبيه الحلق بآلات الموسيقى، معنى الحرف وموضع استعماله الحركات أبعاض حروف المدّ، علّة تصحيح الواو والياء في نحو ثوب وبيت، أسباب قلب الواو والياء ألفين في نحو قال وباع ... إجراء العرب الحرف مجرّى الحركة، والحركة مجرّى الحرف. الحرف ضربان: ساكن ومتحرّك، مرتبة الحركة من الحرف: أقبله، أم معه، أم بعده؟ ... ما لم ينقطع من حروف الهجاء^(٤).

وبعد أن انتهى من المدخل افتتح باب أسماء الحروف وأجناسها ومخارجها، ومدارجها، وفروعها المستحسنة، وفروعها المستقبحة، وذكر خلاف العلماء فيها مُستقصى مشروحاً، وعالج العديد من مسائل علم الأصوات وفيما يلي عدداً منها: الألف اللينة... الحروف الفرعية المستحسنة، الحروف الفرعية المستقبحة، مخارج الحروف، همزة يَبَيِّنُ يَبَيِّنُ، إبدال الزاي من الصاد، المضارعة والتقارب بين الحركات، الفتحة المشوبة بالكسرة، الكسرة المشوبة بالضمّة، الضمة المشوبة بالكسرة لا يُنْحَى بالكسرة ولا بالضمّة نحو الفتحة، قلب النون إذا أدغمت بغنّة، والطاء والصاد والضاد إذا أدغمت بإطباق، الحركة الضعيفة المختلطة، أقسام الحروف، المجهور والمهموس، الشديد والرخو والمتوسط، المطبق والمنفتح، المستعلي والمنخفض، الصحيح والمعتلّ، الساكن والمتحرّك، الأصلي والزائد، حروف البدل، الحرف المنحرف، الحرف المكرر، الحرف المُسْرَب، الحرف المهتوت، حروف الزلافة، حسن تأليف الكلمة من الحروف^(٥).

١- انظر الواجبي في شرح الشاطبية في القراءات السبع، ص ٣٩٩ وما بعدها.

٢- أبو الفتح عثمان بن جنّي، له كتب كثيرة، من أعلام اللغويين، توفي سنة ٣٩٢ هجرية. انظر ترجمته في: تاريخ العلماء النحويين، ص ٢٤.

٣- انظر محاضرات في الصوتيات، ص ٣١.

٤- انظر سرّ صناعة الإعراب، ١/٣٢٩.

٥- نفس المرجع ١/٣٢٠.

لما انتهى ابن جني من هذه المقدمة الطويلة في باب أسماء الحروف عقد لكل حرفٍ باباً، مبتدئاً بالهمزة^(١) حتى نهاية الأحرف مبيّناً وشارحاً مخارجها وصفاتها وإبدالها أو قلبها، استحسانها وقبحها، وتألفها مع بقية الأصوات وزيادتها ومفارقتها، وجواز إدغامها وتماثلها، وتقاربها وإتباعها، وهكذا كل حرف بحسب ما فيه من خصائص صوتية.

وجاء القرن الخامس الهجري يحمل إلينا رسالة صغيرة في الأصوات العربية، للرئيس ابن سينا، فيلسوف الإسلام، واسمها: «أسباب حدوث الحروف»، وهي مقسمة على ستة فصول: الأول منها في سبب حدوث الصوت، ويقصد به صوت الإنسان وغيره، والثاني في سبب حدوث الحروف، ويقصد بالحروف الأصوات الإنسانية، والثالث في تشريح الحنجرة واللسان، والرابع في الأسباب الجزئية لحرفٍ حرفٍ من حروف العرب، والخامس في الحروف الشبيهة بهذه الحروف، وليست في لغة العرب، والسادس في أن هذه الحروف من أي الحركات غير النطقية قد تسمع. وحديث ابن سينا في هذه الرسالة، أشبه بحديث علماء وظائف الأعضاء، فكان له مصطلحاته ووصفه الأصيل لكل صوت، مما جعله محل إعجاب وتقدير علماء الأصوات المحدثين^(٢).

وفي القرن السادس الهجري ألف جار الله الزمخشري^(٣) كتاب «المفصل» في علم النحو، وفي نهاية الكتاب درس العديد من أبحاث الدراسات الصوتية^(٤)، وقد شرح هذا الكتاب موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش المتوفى سنة ٦٤٣ هـ وغيره.

ومن الأبحاث الموصوفة بالأصالة بالدراسات الصوتية ما قدمه السكاكي^(٥). في كتابه «مفتاح العلوم»^(٦)، وهو يدرس الأصوات اللغوية ومخارجها وصفاتها ورسم أول مصوّر يعتد به لأعضاء النطق ومخرج كل صوت محدد في هذا الرسم، ومع مقارنته بالرسم الحديث تجد عمل السكاكي أصلاً لرسم المحدثين.

المبحث الثالث: علم الأصوات بين الأصالة والحداثة:

جذبت أصوات اللغة العربية علماء اللغة، فانتبهوا إلى أهمية هذا العلم اللغوي الذي يتعلق بإتقان القراءة والإلقاء وتلاوة القرآن، فعملوا على نشر هذا العلم وتطبيق مضمونه، إذ خشي

١- نفس المرجع ١/٢٢١.

٢- انظر المدخل إلى علم اللغة، ص ١٧.

٣- هو: جار الله محمود بن عمر الزمخشري، ألف «المفصل» في النحو، وأساس البلاغة» في المعجم والكشاف» في التفسير، ولد ٤٦٧ هـ وتوفي ٥٣٨ هـ.

٤- انظر شرح المفصل ١٠/١٢٠- إلى - ١٥٥.

٥- هو الإمام أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ.

٦- انظر مفتاح العلوم، ص ١١.

هؤلاء أن تتحرف أصوات العربية وتتأثر بأصوات لغوية مجاورة لها، مثل: الفارسية والرومية والحبشية وغيرها، فبدلوا جهوداً واضحة في الحفاظ على الصوت العربي، وقد ظهر ذلك جلياً في القرن الثاني الهجري، فكان للخليل بن أحمد اليد الطولى في هذا المضمار، فقد اعتنى بدراسة الأصوات بطريقة جديدة، وكان عارفاً بالموسيقى وأوزان الشعر وعلم العروض، وساعده على ذلك سمعه المرهف، وإحساسه الدقيق بالأصوات اللغوية .

ومن المعلوم بالضرورة أن مختبر وآلات الصوتيات في القرن الثاني الهجري لم تكن موجودة، فكان للخليل بن أحمد يجري التجارب على الأصوات بنفسه ويتذوقها بلسانه، ويختبرها بإحساسه الموسيقي المرهف. قال عنه تلميذه (الليث بن المظفر) في مقدمة معجم العين: «فدبر ونظر إلى الحروف كلها وذاقها فصير أولها بالإبتداء أدخل حرف منها في الحلق. وإنما كان ذواقه إياها أنه كان يفتح فاه بالألف ثم يظهر الحرف، نحو: أب، أت، أح، أع، أغ. فوجد العين أدخل الحروف في الحلق فجعلها أول الكتاب ثم ما قرب منها الأرفع فالأرفع، حتى أتى على آخرها وهو الميم»^(١) واستثنى الابتداء بالألف -علماً أنها حلقيه وقبل العين - لأن الألف حرف معتل، فكره أن يبتدأ التأليف به^(٢). وسهل عليه تقسيم مخارج الأصوات اللغوية، وصفات جميع الأصوات اللغوية. وتوجه الخليل بنطق الصوت اللغوي ساكناً، طريقة سليمة لكي لا يلتبس على الدارس أو الباحث تداخل الأصوات فيصدر من مخرجه نقياً غير مشوباً، وهذه الطريقة الآن تتبّع في المدارس الإبتدائية والصف الأول لتدريب التلاميذ على نطق الأحرف سليمة .

وقد تلقف سيبويه نظريات أستاذه الخليل وألف كتابه «الكتاب» وعقد أبواباً في الإدغام كانت عماد دراسات العلامة ابن جنى في كتابه «سر صناعة الإعراب» وقد تبع ابن جنى ما ارتآه الخليل في التعرف على أصوات الحروف، فقال في ذوق أصوات الحروف: وسبيلك إذا أردت اعتبار صدى الحرف، أن تأتي به ساكناً لا متحركاً، لأن الحركة تُقلق الحرف: عن موضعه -موقعه- ومستقره، وتجتذبه إلى جهة الحرف التي هي بعضه، ثم تدخل عليه همزة الوصل مكسورة من قبله، لأن الساكن لا يمكن الإبتداء به، فتقول: إك، إق، إج، وكذلك سائر الحروف^(٣).

والتشريح العضوي البشري في ذلك الوقت لم يكن معروفاً ومع ذلك أدرك ابن جنى أن صدور الصوت يشبه تارة صوت المزمار وأخرى صوت وتر العود، فهو من ناحية التشريح العضوي لا يدري بوجود وترين عند الإنسان، ومع ذلك شبه الصوت اللغوي الصادر من مخرجه بصوت

١- العين ٥٢/١.

٢- انظر نفس المرجع

٣- سر صناعة الإعراب ٧/١.

الناي وآخر بصوت أوتار العود، فقال في تشبيه الحلق بآلات الموسيقى: ولأجل ما ذكرنا من اختلاف الأجراس في حروف المعجم باختلاف مقاطعه، التي هي أسباب تباين أصداثه، ما شبّه بعضهم الحلق والضم بالناي، فإن الصوت يخرج فيه مستطيلاً أملس ساذجاً، كما يجري الصوت في الألف غُفلاً بغير صنعة، فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوفة وراوح بين أنامله، اختلفت الأصوات، وسمع لكل خرق منها صوت لا يُشبه صاحبه، فكذاك إذا قطع الصوت في الحلق والضم بالإعتماد على جهات مختلفة كان سبب سماعنا هذه الأصوات المختلفة .

ونظير ذلك أيضاً وتر العود، فإن الضارب إذا ضربه وهو مُرْسَل، سمعت له صوتاً. فإن حَصَرَ آخَرَ الوتر ببعض أصابع يسراه، أدى صوتاً آخر، فإن أدناها قليلاً، سمعت غير الاثنين، ثم كذلك كلما أدنى أُصْبِعُه من أول الوتر تشكّلت لك أصداً مختلفة، إلا أن الصوت الذي يؤديه الوتر غُفلاً - أي: مرسلاً - غير محصور، تجده بالإضافة إلى ما أداه وهو مضغوط محصور، أملس مهتزاً^(١). ويبين أن سبب اختلاف الأصوات هو الضغط على الأوتار وحصرها، فيهتز الوتر بقدر قوّته وصلابته ويذكر أن جريان الصوت في الحلق والضم غُفلاً بمعنى مرسلاً أو مفتوحاً غير محصور كجريان الصوت في الألف، ويعنى صوت اللين المفتوح، وما يعترض الصوت من الضغط والحصر بالأصابع على الوتر كالذي يعرض للصوت في مخارج الحروف من المقاطع ويقوم بهذا الدور اللسان، ويبيّن ابن جنّي أن علم الأصوات والحروف، له تعلق ومشاركة للموسيقى، لما فيه من صنعة الأصوات والنغم^(٢).

وبذلك يكون ابن جنّي قد أدرك أن الصوت يصاحبه اهتزاز أو ذبذبات عند صدوره فيظهر ذلك الصدى ويتشكل بالضغط على مناطق مختلفة في تجويف الحلق أو الضم .

وقد أطال ابن جنّي الحديث عن طول الصوت اللغوي والزمن الذي يستغرقه نطق الحركة والمدّ وصوت اللين، فيختلف زمن كل واحد عن الآخر، وأن هذه الأصوات متشابهة النطق مختلفة في كمية الزمن، وفي شرحه أن «الحركات أبعاض حروف المد» قال: اعلم أن الحركات أبعاض حروف المدّ واللين، وهي الألف والياء والواو، فكما أن هذه الحروف ثلاثة، فكذاك الحركات ثلاثة، وهي الفتحة، والكسرة، والضمّة، فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمّة بعض الواو، وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة، والكسرة الياء الصغيرة، والضمّة الواو الصغيرة، وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة، ألا ترى أن الألف والياء والواو اللواتي هُنَّ حروف تَوَأمٌ كَوَاملٌ، قد تجدهنَّ في بعض الأحوال أطول وأتمّ منهن في بعض، وذلك قولك: يخاف

١- المرجع السابق ١/٩٠١.

٢- المرجع السابق ١/١٠١.

وينام، ويسير ويطير، ويقوم ويسوم، فتجد فيهن امتداد واستطالة ما، فإذا أوقعت بعدهنّ الهمزة أو الحرف المدغم ازددن طولاً وامتداداً، وذلك نحو: يشاء ويذاء - داء الرجل يداء، على مثال شاء: يشاء: إذا صار في جوفه الداء - ويسوء ويهوء - هاء بنفسه إلى المعالي يهوء هوءاً: رفعها وسما بها - ويجيء ويضئ وتقول مع الادغام شأبةً ودأبةً، ويطيب بكر، ويسير راشد، وتُموّد الثوب، وقد قُوصَّ زيد بما عليه، أفلا ترى إلى زيادة المدّ فيهنّ بوقوع الهمزة والمدغم بعدهنّ، وهن في كلا موضعيهنّ يُسمَّين حروفاً كوامل، فإذا جاز ذلك فليست تسمية الحركات حروفاً صغاراً بأبعد من القياس منه، ويدلك على أن الحركات أبعاض لهذه الحروف، أنك متى أشبعت واحدةً منهن حَدَّت بعدها الحرف الذي هي بعضه، وذلك نحو فتحة عين عَمَرَ، فإنك إن أشبعتها حَدَّت بعدها ألف فقلت: عامر، وكذلك كسرة عين عَنَبَ، إن أشبعتها نشأت بعدها ياء ساكنة، وذلك قولك: عَيْبَ، وكذلك ضمة عين: عُمَرَ، لو أشبعتها لأنشأت بعدها واواً ساكنة، وذلك قولك: عومَرَ، فلولا أنّ الحركات أبعاض لهذه الحروف وأوائل لها، لما تنشأت عنها، ولا كانت تابعة لها^(١).

ولهذا كتب علماء اللغة الحركات فوق الحروف والمدود بجانبها لكي لا يلتبس الأمر بينهما ولا تطول كتابه الكلمة، وهذه عبقرية الخليل بن أحمد. بينما نجد الكتابة باللغة الفرنسية أو الانكليزية أن أصوات الحركات أو اللين «VOWELS» كتبت في صلب الكلمة الأجنبية فتفوقت ميزة الكتابة العربية على الأجنبية بذلك كثيرا، وليس هنا موطن الحديث عنها.

والحديث عن الحركات أو أصوات اللين يستدعي أن نتبين الحركات المعيارية، وكان الأستاذ دانيال جونز^(٢) الذي يرجع إليه الفضل الأول في إنجاح هذا وجعله صفة العالمية في الدراسات الصوتية، وهذه الحركات لا تنسب إلى أي لغة، وإنما هي «معايير» أو «مقاييس» عامة، تنسب إليها وتقاس عليها حركات أي لغة يراد دراستها أو تعلمها^(٣). وسجلت على الأسطوانات، وأشهر هذه الأسطوانات رقم B 0804 في أكسفورد ولندن^(٤).

وقد بدأ دانيال جونز عمله بأن حدد الموضوع الذي يمكن أن يصعد إليه أول اللسان نحو الحنك الأعلى، بحيث يكون الفراغ بينهما كافيا لمرور الهواء، دون أن يحدث في مروره أي نوع من الحفيف. فأقصى ما يصل إليه أول اللسان متجهاً نحو الحنك الأعلى بحيث لا يحدث الهواء المار بينهما أي نوع من الحفيف يعدّ موضعا مضبوطاً بين أصوات اللين، وقد رمز له بالرمز «أ» وهو

١- سرّ صناعة الاعراب ١/١٩-٢٠.

٢- استاذ الصوتيات في جامعة لندن.

٣- انظر علم اللغة العام «الاصوات» ص، ١٣٩.

٤- الأصوات اللغوية، ص ٣٥.

ما يشبه الكسرة الرقيقة في اللغة العربية حين يكون قصيراً، أو ما يسمى بياء المد حين يكون طويلاً، وقد عدّ المحدثون هذا الصوت أول مقياس لأصوات اللين، لتحديد موضعه إذ لو صعد أول اللسان نحو الحنك أكثر من هذا، سمع الحفيف الذي يخرج به صوت اللين إلى محيط الصوت الساكن الذي نسميه «الياء» فالفرق بين «الياء» وصوت اللين «آ»، الطويل، هو أن موضع الأول أقرب إلى الحنك الأعلى، والفراغ بين اللسان والحنك معها أضيق منه في حال صوت اللين «أ» ويترتب على هذا أننا نسمع بعض الحفيف مع «الياء».

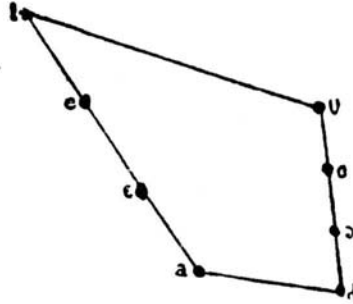
وذلك لأن ضيق المجرى عن القدر المعين المحدد لأصوات اللين يخرج بالصوت عن منطقتها إلى منطقة الأصوات الساكنة، فما سماه القدماء بياء المد في مثل: «كريم وقتيل» يشبه إلى حد كبير المقياس الأول الذي يرمز في علم الأصوات بالرمز «i» حين يكون هذا المقياس طويلاً أي حين يطول زمن النطق به، أما حين يقصر زمن النطق به فهو قريب الشبه بالكسرة المرققة. فإذا أردنا الانتقال من ياء المد التي هي في مثل «كريم» والتي تقع في منطقة أصوات اللين إلى الياء العادية التي تكون في مثل: «بيّت» أمكن هذا بتضييق الفراغ بين اللسان والحنك الأعلى.

ويتكون المقياس الثاني بأن يهبط اللسان إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه في الفم، بحيث يستوي في قاع الفم، مع انحراف قليل في أقصى اللسان نحو أقصى الحنك، فيتحدد لنا بهذا مقياس آخر، ويرمز إليه عادة بالرمز «α» وهو ما يشبه الفتحة المفخمة في اللغة العربية حين يكون قصيراً، ويشبه ما يسمى بألف المدّ المفخمة حين يكون طويلاً. وبين أقصى ما يصل إليه اللسان في صعوده نحو الحنك الأعلى وأقصى ما يصل إليه في هبوطه بقاع الفم، استنبط المحدثون ثلاثة مراحل عند كل منها يتكون صوت لين خاص. فاللسان في هبوطه من وضع «i» إلى وضع «α» يمرّ بمواضع ثلاثة، رمز لها بالتدرّج - إقرأ بالطريقة العربية من اليمين - «aæ».

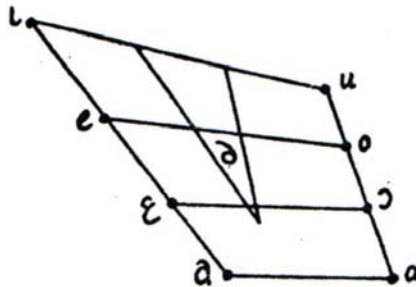
وقد اتخذ علماء الأصوات المحدثون ثلاث مراحل أخرى تلي الصوت «α» ناظرين في هذه المرّة إلى نسبة صعود اللسان نحو الحنك الأعلى. فأخرها ما يصل إليه أقصى اللسان في صعوده نحو أقصى الحنك، ليكون الفراغ بينهما من السعة بحيث لا يحدث الهواء أي نوع من الحفيف، هو المقياس الأخير لأصوات اللين، وهو ما يرمز إليه بالرمز «u» وهو الذي يشبه الضمة المرققة في اللغة العربية حين يكون قصيراً، ويشبه ما يسمى بواو المدّ حين يكون طويلاً. فإذا زاد صعود أقصى اللسان نحو أقصى الحنك، أحدث الهواء في أثناء مروره نوعاً من الحفيف، وأنتج ذلك الصوت الذي نسميه بالواو، فالفرق بين الواو وصوت اللين «u» الطويل وهو أن الفراغ بين أقصى اللسان وأقصى الحنك مع الأولى ضيق، إذا مرّ خلاله الهواء أحدث نوعاً من الحفيف، فإذا قورنت الواو العادية التي في مثل «يَوْم» بما يسمى بواو المدّ في مثل «يقوّل» وجدنا مع نطق الواو العادية

نوعاً من الحفيف يجعلها تنتمي إلى الأصوات الساكنة. ويعزى هذا الحفيف إلى ضيق الفراغ بين أقصى اللسان والحنك عن القدر المحدد لأصوات اللين ويرمز عادة للمرحلتين اللتين بين «u» و«α» بالرمزين الآتيين على الترتيب، o .

وبهذا يتكون لنا ثمانية مقاييس تبدأ بصوت اللين «i» وتنتهي بصوت اللين «u»^(١) وتوضع عادة مدرجة في شكل كالآتي:



هذا التوصيف للحركات المعيارية ذكرته أغلب كتب الأصوات الحديثة^(٢) وقد ذكر «كمال بشر» صوتاً تاسعاً أهمله «ابراهيم أنيس» وغيره، فقال: «أما الحركة المعيارية التاسعة: [ə] فلا يرتفع اللسان معها من الخلف أو الأمام إرتفاعاً ملحوظاً، كما لا ينخفض معها انخفاضاً كبيراً في قاع الفم، أي: أن هذه الحركة لا تنسب إلى الجزء الأمامي أو الخلفي من اللسان، وإنما تنسب إلى وسطه لأنه الجزء المرتفع نسبياً حال النطق بها»^(٣) ويضع رسماً بيانياً يبين موقع هذا الصوت وهو على الشكل التالي:



١- انظر الأصوات اللغوية، ص ٣١.

٢- انظر مدخل علم اللغة، ص ٩٤. علم اللغة العام «الأصوات» ص ١٤١. اللغة العربية - خصائصها وسماتها، ص ١٩٠، التجويد والأصوات ص ٣٣.

٣- علم اللغة العام، ص ١٤١.

وقد وضع لكل حركة معيارية مثلاً من لغات متنوعة: (١)

ومثالها الكلمة الفرنسية si	I	الحركة الأولى
ومثالها الكلمة الفرنسية thé	e	الحركة الثانية
ومثالها الكلمة الفرنسية même	ε	الحركة الثالثة
ومثالها الكلمة الفرنسية la	α	الحركة الرابعة
ومثالها الكلمة الفرنسية pas	α	الحركة الخامسة
ومثالها الكلمة الألمانية sonne	ɔ	الحركة السادسة
ومثالها الكلمة الفرنسية rose	o	الحركة السابعة
ومثالها الكلمة الألمانية gut	u	الحركة الثامنة

بعد عرض الحركات المعيارية يتبين لنا أنها ليست غريبة عن حركات اللغة العربية فالحركة رقم «١» تشبه الكسرة العربية المرققة «قصيرة أو طويلة». وإذا كانت الكسرة تصاحب صوت «الصاد، الضاد، الطاء، الظاء» فإن المتكلم يفخم صوت الكسرة لوجود صوت مطبق فيخرج صوت الكسرة مفخماً قليلاً ويناسب الصوت المعياري الثاني. أما الحركة الثالثة فتمثلها الفتحة الممالة في نحو «مرساها-ومجراها- والضحى» في قراءة حمزة والكسائي. والحركة الرابعة «a» وتشبهها الفتحة العربية المرققة «طويلة» - أو- «قصير» ومثالها: عالم، هام، علم، هرب. ففتحة العين والهاء مرققة. والصوت الخامس «α» الفرنسي، فإنها الفتحة المفخمة إذا كانت طويلة وقبلها صوت مطبق، مثل: صال، طاب، أو قصيرة وصاحب صوتاً مطبقاً، مثل: طَبَّق، صَبَّرَ، ظَلَمَ. والحركة السادسة «ɔ» الألماني وهو أول حركات الضم، ويمثلها في اللغة العربية صوت الضمة مثل: السميع، البصير. والحركة السابعة «o» الفرنسية، الضمة المفخمة المصاحبة لصوت مطبق، مثل: صُم. أما الحركة الثامنة «u» الألمانية، فتمثلها حركة الضمة الطويلة، مثل قولك: مقتول، مجهول.

أما الذي ذكره «كمال بشر» في الحركة التاسعة [ɔ] ومخرجها المنطقة الوسطى ما بين الضم والكسر والذي عبر عنها علماء النحو والتجويد بالإتمام في مثل قولك: قِيلَ، وبيَّع، عند إحالة الكسر إلى الضم (٢).

وقد ذكر ابن جني أن المضارعة والتقارب يكون بين الحركات، فقد تجد الفتحة مشوبة بشيء من الكسرة أو الضمة منحواً بها إليهما، وتجد الكسرة أيضاً مشوبة بشيء من الضمة،

١- أنظر المرجع السابق ص، ١٤٢.

٢- قارن مع علم اللغة العام «الأصوات» ص، ١٤٠. الأصوات اللغوية ٤٠. التجويد والأصوات. ص ٣٦.

والضمة مشوبة بطرف من الكسرة، ولا تجد الكسرة والضمة مشوبة بشيء من الفتحة .

أما الفتحة المشوبة بالكسرة فالفتحة التي قبل الإمالة نحو فتحة عين عابد وعارف، وذلك أن الإمالة إنما هي أن تتحو بالفتحة نحو الكسرة، فتميل الألف التي بعدها نحو الياء، لضرب من تجانس الصوت، فكما أن الحركة ليست فتحة محضة، فكذلك الألف التي بعدها ليست ألفاً محضة، وهذا هو القياس، لأن الألف تابعة للفتحة، فكما أن الفتحة مشوبة فكذلك الألف اللاحقة لها، وقد أمالوا أيضاً هذه الفتحة وإن لم تكن بعد الألف، فقالوا: من عمّرو،... وأما الفتحة الممالة نحو الضمة، فالتى تكون قبل ألف التفخيم، وذلك نحو: الصلاة، والزكاة، وقام، وصاغ. وكما أن الحركة أيضاً هنا قبل الألف ليست فتحة محضة، بل هي مشوبة بشيء من الضمة، فكذلك الألف التي بعدها، ليست ألفاً محضة لأنها تابعة لحركة هذه صفتها، فجرى عليها حكمها، وأما الكسرة المشوبة بالضمة، فنحو: قِيلَ، وبيِعَ، وعَبِيضٌ، وسَيِّقٌ، وكما أن الحركة قبل هذه الياء مشوبة بالضمة، فالياء بعدها مشوبة بروائح الواو، على ما تقدم في الألف.

أما الضمة المشوبة بالكسرة فنحو قولك في الإمالة: مررت بمذعور وهذا ابن بُور، نحوت بضمة العين والباء نحو الكسرة... فأشتمتها شيئاً من الكسرة ...

وأجاب ابن جني عن سؤال: لم جاز في الفتحة أن ينحى بها نحو الكسرة والضمة، وفي الكسرة ينحى بها نحو الضمة، وفي الضمة أن ينحى بها نحو الكسرة ولم يجز في واحد من الكسرة ولا الضمة أن ينحى بها نحو الفتحة ؟

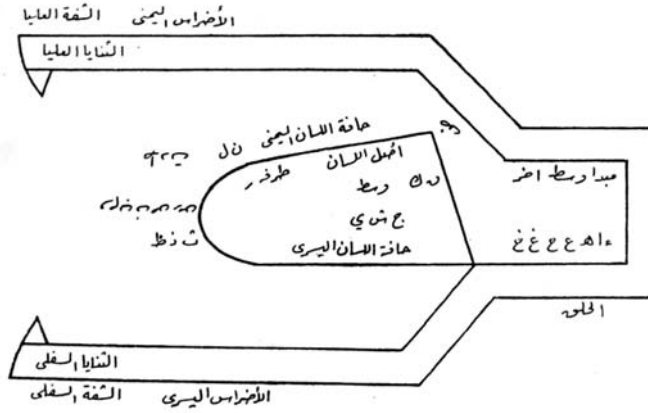
وملخص إجابته: أن بين الضمة والكسرة من القرب والتناسب ما ليس بينهما وبين الفتحة، فجاز أن يتكلف نحو ذلك بين الضمة والكسرة لما بينهما من التجانس^(١). فقد لاحظ ابن جني تجانس الضم مع الكسر وسببه أنهما يتفقان بارتفاع اللسان «فهما مستعليتان» بحيث لا يطرق اللسان سقف الحنك وإن كان أحدهما من أقصى اللسان والآخر من طرفه، بينما الفتحة مستقلة. و«أن هذا القول على ما تراه، وإن شئت فقل إن الضمة وإن نُحِيَ بها نحو الكسرة فلقرّبها منها وبعدت الفتحة منها فلم يجز فيها ما جاز في الكسرة القريبة»^(٢).

فالباحث يدرك سعة معرفة علماء العربيّة القدامى بالأصوات اللغوية، في الوقت الذي كانوا يفتقدون إلى مساعدة الآلات وإجراء التجارب عليها كما هو الحال في القرن التاسع عشر وما بعده، وما أدل على ذلك سوى الرسم الذي ابتكره السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ هجرية، أي أكثر من ثمانمائة عام. فقد نبّه في حديثه على أنواع الأصوات الصامتة، ثم تحدث عن الأصوات المجهورة

١- انظر سرّ صناعة الإعراب ٥٨/١ وما بعدها

٢- سرّ صناعة الإعراب ٦٢/١.

فالمهموسة، وحروف القلقل، وتنوع الأصوات إلى مستعلية ومنخفضة، والمطبقة والمنفحة، وأن مخارجها عند العلماء ستة عشر مخرجا، ويذكر مخارج الأصوات مبتدئاً بأقصى الحلق، مروراً بمخارج أصوات اللسان والانتهاؤ بمخرج الباء والميم من الشفتين، ذاكرا الخياشيم، وصحيح أن هذا الرسم بدائي ولكن كل شيء يبتدئ ضعيفاً حتى يستقيم الأمر، ولكن السكاكي كان على طريق سوي بالنسبة إلى ما قدمه كأول تخيل مرسوم ووسيلة إيضاح، وإليك الرسم الموجود في كتابه:^(١).



وعلماء العربية كما وصفوا أصوات اللين أيضاً وصفوا الأصوات الصامتة كلها. وما يقابلها ويناسبها من أصوات باللغات الأوروبية تناسب مع توصيف علماء أصوات الغرب المحدثين، وتعريف المصطلحات العربية القديمة والأوروبية الحديثة جاء منسجمين في الدلالة، وهذه طائفة من المصطلحات الصوتية في اللغة العربية وما يتناسب معها في لغات أخرى:

الأصوات الصامتة: consonants. الحركات: vowels. الصوت المهموس: voiceless. الصوت المجهور: voiced. إلتقاء الثنايا وطرف اللسان: dental. الأصوات الشديدة أو الانفجارية: plosives. الأصوات المحبوسة: stops. صوت الطاء مشربة بالتهميز: glottalization. الحركات المعيارية: cardinal vowels. الحركات الأمامية: front vowels. الحركات الخلفية: back vowels. الحركات الوسطى: central vowels. الحركات الضيقة: close vowels. الحركات المتسعة أو المنفحة: open vowels. الحركات نصف الضيقة: half-close vowels. الحركات نصف المتسعة: half-open vowels.^(٢) الصوت الرخو أو الإحتكاكي: fricatives. الأصوات

١- انظر مفتاح العلوم، ص ١٢.

٢- انظر علم اللغة العام «الأصوات» ٧٣-٨٧-٩٢-١٠٠-١٠٣-١٣٩-١٤٤.

المائعة : liquids. الإدغام أو الصوت الأنفي : nazalisation. لسان المزمار : epiglottis. النبر : stress. موسيقى الكلام : intonation. المماثلة : assimilation. التأثر الرجعي : regressive. التأثر التقدمي : progressive^(١).

هذه مجموعة من المصطلحات المستعملة في علم الأصوات اللغوية في اللغة العربية والفرنسية، وكان ابن سينا في أبحاثه اللغوية وتشريحه لأعضاء النطق قد سمى العديد من الغضاريف والغدد بأسماء عربية أشتهرت بعد ذلك في علم الطب بأسماء أخرى.^(٢)

ومؤرخو الحضارة الإنسانية والثقافية يقولون: التفكير الصوتي اللغوي لم يأخذ صورته المنظمة ولم يبد في هيئة النظريات العلمية الثابتة إلا في تراث أمتين عظيمتين هما الهنود والعرب ويقول: «برجستراسر» عن علم الصوتيات: لم يسبق الأوروبيين في هذا العلم إلا قومان: العرب والهنود، ويقول «فيرث»: لقد شبَّ علم الأصوات ونما في أحضان لغتين مقدستين: العربية والسانسكريتية^(٣).

وقد اتجه علماء الغرب إلى دراسة العلوم العربية عامة وبرزت في القرن التاسع عشر ظاهرة الإستشراق، فاطلع المستشرقون على العلوم العربية كلها وبرعوا فيها، ومنها علم الأصوات، ومن المعروف أن نابليون بونابرت لما غزا الشرق -أول القرن التاسع عشر- اصطحب معه العديد من رجال البحث العلمي لدراسة العلوم المتخصصة، ومن أوائل المستشرقين الفرنسيين الذين درسوا علم الأصوات عند العرب سلفستري ساسي sylvestre de sacy، وتلميذه فرانز بوب المولود في ألمانيا سنة ١٧٩١م، وقد تلقى بوب علومه في ألمانيا وفرنسا وأقام في باريس من سنة ١٨١٢ حتى سنة ١٨١٦ حيث استمع إلى دروس سلفستري، وتعلم العربية والعبرية والفارسية^(٤).

وكان من المستشرقين الذين أولعوا بالعلوم العربية، المستشرق الألماني «شاده» حيث كان معجبا بالخليل وسيبويه فدرس علم الأصوات في «الكتاب» وكشف عن كثير من القضايا التي تتصل بالدراسات الصوتية في رسالته التي حصل بها على درجة الدكتوراه، وكان موضوعها: «علم الأصوات عند سيبويه» وقد طبعت هذه الرسالة في ليدن سنة ١٩١١م^(٥).

وقد صرح الدكتور إبراهيم أنيس: أنه وقع له أخيراً محاضرة ألقاها الأستاذ الألماني:

١- أنظر الأصوات اللغوية ٢٤-٧١-١٤٣-١٧٥-١٨٠.

٢- أنظر الأصوات اللغوية، ص ١٤٤.

٣- أنظر محاضرات في الصوتيات، ص ٢٧.

٤- أنظر الألسنية (علم اللغة الحديث) مبادئها وأعلامها، ص ٢٧٣.

٥- أنظر محاضرات في علم الصوتيات، ص: ٣٠.

أ.شاده. الذي كان يقوم بالتدريس في كلية الآداب -بمصر- وفيها يعرض آراء سيبويه ويناقشها، وقد شرح الدكتور أنيس هذه المحاضرة ونقدها^(١). وقد ذكر الدكتور رمضان عبد التواب هذه المحاضرة القيمة في خضم حديثه عن المؤلفات الحديثة في علم الأصوات باللغة العربية، فقال: ٢- «علم الأصوات عند سيبويه وعندنا» محاضرة للمستشرق الألماني «شاده» ألقاها في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية في سنة ١٩٢١م باللغة العربية، ونشرت بصحيفة الجامعة المصرية سنة ١٩٢١م، وهذه المحاضرة خلاصة مؤلف باللغة الألمانية لهذا المستشرق^(٢).

ويؤكد الدكتور بسام بركة^(٣) أن دراسة الصوت اللغوي بالطرق العلمية الدقيقة لم تر النور في أوروبا إلا في القرن التاسع عشر، على يد دارسي علم اللغة المقارن، إلا أن وضع الأسس النظرية التي أدت إلى تطور هذه الدراسة جرى على يد رهط من العلماء في مطلع القرن العشرين، كان منهم رائد اللسانيات «دي سوسور»^(٤) ومؤسسو مدرسة «براغ» - «Jecole de Prague»^(٥). وقد ذكر الدكتور ميشال زكريا في كتابه الفصل السابع أعلام الألسنية المحدثين، ونصح من يريد أن يستزيد الرجوع إليه^(٦).

وقد بين «ج. فندرس» أن علم الأصوات قد طرأ عليه تجديدات عميقة، فقد أنشأت جماعة من اللغويين ينتمون إلى هيئة براغ «براغ» منهجا جديدا هو «الصوتيات» مستوحين في ذلك الآراء التي ذكرها من قبل «بودوان دي كورتنيه» و«فرديناند دي سوسور»^(٧).

١- انظر الأصوات اللغوية، ص «١١١».

٢- المدخل الى علم اللغة، ص «١٩» ومما يذكر هنا أن الدكتور رمضان عبد التواب درس في جامعات ألمانيا، وناقشني في رسالة الدكتوراه سنة ١٩٧٩م في كلية اللغة العربية- جامعة الأزهر .

٣- انظر علم الأصوات العام . د. بركة، ص «٥».

٤- فردينا ند دي سوسور f. de Saussure. ولد في جنيف ١٨٥٧م وتوفي سنة ١٩١٣م. يعد «دي سوسور» مؤسس العلوم اللغوية الحديثة ورائد مفاهيم اللسانيات البنوية. انظر علم الأصوات العام د. بركة ص «١٠». والألسنية، ص «٢٣».

٥- مدرسة لغوية امتد نشاطها من سنة ١٩٢٦م حتى الحرب العالمية الثانية

٦- أنظر الألسنية، الفصل السابع، ص «٢١٧».

٧- انظر كتاب «اللغة» ص «٤٦١».

التوصيات

أولاً: الوثوق باللغة العربية، فهي لغة أدت دوراً في الحياة الأدبية واحتوت النصوص الشرعية ومفهومها، وطاوعت المجتمع في فهم الحضارات، وعبرت عن حاجات المجتمع، فهي لغة شريفة ومتينة والعرب والمسلمون عامة يعرفون فضلها ومكانها ولا يستبدلون بلغة أخرى أو بلهجة تحل مكانها.

ثانياً: ندعو علماء اللغة إلى الاطلاع على الثروة اللغوية العربية واستظهار مكنونها وفهم أسرارها.

ثالثاً: شرح آراء علماء اللغة القدامى لفهم مكنونات لغتنا الفصيحة.

رابعاً: اهتمام الأمة بتعليم أبنائها. منذ الصغر. لفهم العربية وتمكينهم منها في كافة المراحل الدراسية.

خامساً: وضع المناهج والمقررات بصورة محبوبة ومبسطة وحديثة ليقبل عليها أبنائنا في كافة المراحل الدراسية .

المراجع

- ١- الأدب العربي بين الجاهلية والاسلام. تأليف عبد الحميد محمود. المسلول مطبعة السعادة- بمصر- ١٣٨٧-١٩٦٧م.
- ٢- الأصوات اللغوية. تأليف الدكتور إبراهيم أنيس. الطبعة السادسة- ١٩٨١م- مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة.
- ٣- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. تأليف مصطفى صادق الرافعي. الناشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان- الطبعة التاسعة ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.
- ٤- الأسنوية (علم اللغة الحديث) ومبادئها وأعلامها. تأليف الدكتور ميشال زكريا بيروت ١٩٨٠
- ٥- تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم. للفاضي أبي المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر التنوخي المعري. تحقيق د. عبد الفتاح محمد الحلواني ١٤٠١هـ ١٩٨١م. جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية السعودية.
- ٦- التجويد والأصوات. تأليف الدكتور إبراهيم محمد نجا - مطبعة السعادة - القاهرة .
- ٧- التطور اللغوي التاريخي. تأليف الدكتور إبراهيم السامرائي. دار الأندلس. بيروت. لبنان- الطبعة الثالثة - ١٩٨٢م.
- ٨- تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى المتوفى سنة ٣٧٠هـ. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والانباء والنشر - سلسلة «تراثنا» .
- ٩- جمهرة اللغة. لأبي بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري، المعروف بابن دريد. مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع - القاهرة .
- ١٠- سر صناعة الإعراب. صنعه الشيخ أبي الفتح عثمان بن جني النحوي. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى ١٣٧٤هـ. ١٩٥٤م.
- ١١- شرح رياض الصالحين. من كلام سيد المرسلين . لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي دمشقي. شرح الشيخ محمد علي الصابوني. المكتبة العصرية صيدا- بيروت. لبنان.
- ١٢- شرح المفصل. للعلامة موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش. المتوفى سنة ٦٤٣هـ . عالم الكتب -

- بيروت - مكتبة المتنبى - القاهرة .
- ١٣- صحيح مسلم . للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري . دار ابن رجب . الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .
- ١٤- طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف بمصر ، ١٩٩٣ م . سلسلة ذخائر العرب (٥٠) .
- ١٥- علم الأصوات العام «أصوات اللغة العربية» . تأليف د. بسام بركة . مركز الإنماء القومي . لبنان - بيروت ١٩٨٨م .
- ١٦- علم العروض والقافية . تأليف : الدكتور عبد العزيز عتيق . مكتبة منيمنة . شارع المعرض - بيروت - لبنان - ١٩٦٤م .
- ١٧- علم اللغة العام «الأصوات» . دكتور كمال محمد بشر ، دار المعارف بمصر - ١٩٧٣ .
- ١٨- العين - للخليل بن أحمد الفراهيدي - ١٠٠-١٧٥هـ . تحقيق د. عبد الله درويش . مطبعة العاني - بغداد ١٣٨٦ - ١٩٦٧ م . ساعد المجمع العلمي العراقي على طبعه .
- ١٩- فصول في فقه اللغة . تأليف د. رمضان عبد التواب . الطبعة الأولى . القاهرة ١٩٧٣ . مكتبة دار التراث .
- ٢٠- الكتاب ، تأليف أبي بشر عمرو الملقب بسبيويه - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - لبنان .
- ٢١- كتاب الأغاني ، تأليف: أبي الفرج الأصبهاني ، علي بن الحسين - ٣٥٦هـ - ٩٧٦م . مطبعة: وزارة الثقافة والارشاد القومي - المؤسسة المصرية للعامّة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .
- ٢٢- الكامل في اللغة والأدب والنحو . تأليف أبي العباس المبرد ، تحقيق د. زكي مبارك . الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م . مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .
- ٢٣- اللغة تأليف : ج. فندريس . تعريب: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص . الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٠م .
- ٢٤- اللغة العربية - خصائصها وسماتها . «دراسات في فقه اللغة» . د. عبد الغفار هلال - الطبعة الأولى - ١٩٧٦م . مطبعة الحضارة العربية - الفجالة بمصر .
- ٢٥- اللهجات العربية . تأليف الدكتور إبراهيم محمد نجا . مطبعة السعادة . الطبعة الأولى .
- ٢٦- محاضرات في علم الصوتيات . بقلم د. عبد الله ربيع ود. عبد العزيز علام ١٩٧٥-١٩٧٦م .
- ٢٧- موسيقى الشعر . تأليف الدكتور إبراهيم أنيس . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٢ م الطبعة الرابعة .
- ٢٨- المدخل الى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي: تأليف د. رمضان عبد التواب . الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م . الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة .
- ٢٩- مفتاح العلوم . لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦هـ . دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .
- ٣٠- نشأة النحو ، وتاريخ أشهر النحاة . تأليف محمد الطنطاوي . تعليق عبد العظيم الشناوي ومحمد عبد الرحمن الكردي . مطبعة السعادة - مصر - الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .
- ٣١- الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع ، تأليف عبد الفتاح عبد الغني القاضي ، المتوفى سنة ١٤٠٣هـ مكتبة الوادي للتوزيع ، الطبعة الخامسة ١٩٩٩م .